تاريخ الاستلام: 2019/10/26 تاريخ القبول: 2019/11/03

قراءة في شيطان كريستوفر مارلو

Read on Demon Christopher Marlowe

أ.د. عمار رجال

جامعة عنابة

ملخص:

يتناول المقال الراع بين الخير والشر في مسرحية "الدكتور فاوستس" لكريستوفر مارلو، من خلال تصرفات ومواقف غريبة للبطل. تزخر المسرحية بمواقف متباينة فيما له علاقة بالحياة الدينية ومثلها الاجتماعية والسياسية والفكرية... تطرح أكثر من سؤال حول مصير الإنسان.

الكلمات المفاتيح: الصراع – الخير – الشر – المصير – الدين - التوبة

Abstract:

This paper aims to shed the light on the eternal conflict between good and evil in Christopher Marlowe's *Doctor Faustus* through the protagonist behaviors and attitudes. The play has a plethora of different attitudes related to religious, social, political and intellectual life. It also raises more than one question about the destiny of human being.

Keywords: Conflict – Good – Evil – Religion – Destiny

المؤلف المرسل: عمار رجال، **الإيميل:** *feddamiloud26@gmail.com*

مقدمة

يعتقد الكثير من الباحثين، أنه لا توجد أسطورة حظيت بما حظيت به أسطورة "فاوست" بعد "أوديب" من معالجة في أكثر من حقل من حقول المعرفة. ولسنا هنا بصدد سرد العشرات من الدراسات التي ظهرت في كل هذه العقول، سواء في علم التحليل النفسي، أو علم الإنسان، أو علم الأساطير، أو النقد الأدبي المسرحي... بل نود أن نشير إلى الاهتمام الواسع الذي حظيت به هذه الأسطورة عند الكتاب المسرحيين الذين اتخذوا من بُعدٍ أو آخر من أبعادها موضوعات لمسرحيات كتبوها سواء تحت الاسم المباشر لـ "فاوست"، بطل الأسطورة، أو في أحوال قليلة تحت عناوين أخرى.

ومن بين هؤلاء الشاعر والمسرحي الإنجليزي "كريستوفر مارلو Christopher MARLOWE" الذي عرض الكثير من المآسي البشرية في مسرحيته "الدكتور فوستوس". وتصور الأسطورة أصلا كيف يكون الشيطان ملجأ الإنسان إذا تمكنت منه أمور السحر وسيطرت عليه، ومثلها الشعوذة والأحاسيس الدنيئة والشهوات المدمّرة... ومقابل الشيطان في ذلك وثمنه هرطقة الإنسان وتحديفه في حق الله... حتى ينتهي بروحه إلى الجحيم.

وقد احتضنت الآداب هذه الأسطورة ووظفتها تبعا لظروف العصر وتطوّر المجتمعات. وبالعودة إلى "كريستوفر" ماركو نجد مسرحيته "الدكتور فاوستوس" هي أول عمل فني احتضن أسطورة "فاوست" وتعامل معها، وأضفى عليها من فكره، وروح عصره، التي تنطوي على تقديس مبادئ الحرية والفردية، وتشجيع الفرد على المضي قدما لتحقيق ما تصبو إليه نفسه من أحلام وطموحات.

هي روح عصر النهضة التي نبذت التفكير الديني مرتكزة على الثقافة الشعبية المشبعة بالفكر الأسطوري الذي كان يحاول دائما أن يجيب على تساؤلات الإنسان المختلفة؛ فاوست إذن شخصية جديدة استخدمت جميع الوسائل مستهزئة بالقيم المتعارف عليها والقائمة على تعاليم الكنيسة، فاوست مارلو هو ذهن متطلع إلى المعرفة وكان يعنيه كل ما يمكن أن يحمل إضاءة غير متوقّعة للسلوك الإنساني، هو ذكاء نقدي يبحث عن منهج فكري بعيد عن العقائدية، وقائم على الحرية والمبادرة، هو الثائر المقتنع بأن المعرفة التي نملكها عن العالم لا يمكنها أن تنشأ عن أي تعليم مُعْطَى قَبْلِيّا، لكنها تستند إلى التجربة الفردية، وهي اليقين النهائي الوحيد لديه.

وما يهمنا في هذا المقام هو تأثر الكتاب العرب بمارلو، انطلاقا من خلفيتهم الثقافية الأجنبية التي هي في جوهرها إنجليزية أو فرنسية بحكم الاستعمار... لقد وقف مارلو حقا عند محطات هامة في حياة الإنسان متجاوزا كل الحدود والأعراف والديانات... فهو لم يبق عند حدود "الساحر" صانع الأعاجيب الذي تحدثت عنه الأسطورة ومثلها الكتاب الشعبي انطلاقا من التاريخ.

وأهم تبديل أجراه مارلو عمَّا كانت عليه الأسطورة، هو تحويل شخصية الدكتور فوستوس من ساحر عنيد لم يتب إلا بعد انقضاء الأربعة وعشرين عاما، إلى طالب علم تتجاذبه قوى عظيمة يحركها الضمير من جهة والشهوات من جهة أخرى. لقد صور بذلك، أكثر من أي كاتب إنجليزي آخر شباب عصره التواق إلى العلم والمعرفة والسلطة. إنه جيل عصر النهضة الذي لا يعرف الراحة، ويرفض الآراء الدينية القديمة، ويسعى إلى اكتشاف عوالم جديدة لا تحدها حدود. لكن في الوقت نفسه كان الكثير من أبناء هذا الجيل ضحية لهذه الأفكار الجديدة: العلم، والسلطة، والثروة... وبخاصة القوة؛ وفاوست هو أحد هؤلاء الضحايا، حيث لم يقتنع بالتشوق إلى هذه القوى، بل راح يطلبها. إن فاوست عند مارلو: "إنسان يتمتع بفيض من المشاعر والعواطف جعله متشوقا لمزيد من القوة. وقد فكر في الوسائل التي درج الإنسان قبله على التوصل بها إلى مبتغاه، غير أنه لم يستطع أن يطفئ الحاجة المتأججة في نفسه بوسيلة منها، فلا المنطق ولا الطب ولا اللاهوت ولا القانون أَوْصَلَهُ إلى القوة العارمة التي يطمع إليها، القوة التي تجعل كلّ ما بين القطبين يخضع لأمره، فلا بد إذن أن يتنكر لكل تلك الوسائل القاصرة، وأن يطرحها جانبا، وأن يبحث عن وسيلة أخرى".[1]

وعليه يصبح "فاوست" بالنسبة إلينا رمزا للصراع الكبير الذي مرَّت به البشرية في سبيل تحقيق الأهداف والغايات، إنها مأساة الطموح اللامحدود الذي ينتهي بالخوف والألم والعذاب والندم. لقد سَمَا الكاتب ببطله إلى المستوى الإنساني من خلال ذلك الصراع بين الخير والشر، وبين القديم والجديد، تاركا له الإرادة المطلقة في اتخاذ مواقفه، سواء تعلق الأمر بالعالم الخارجي أو تعلق بعالمه النفسي الداخلي.

كما لم ينكر فاوست لحظة بأنه وحده يتحمل مسؤولية سقوطه، فحتى الشيطان المعروف بخبثه وخداعه، كان معه مسؤولا مطيعا، لم يخدعه في أمر، إذ رفض الإجابة عن الأسئلة الخاصة برب السماء، ورفض أن يحضر له زوجة، شارحا له كل أمر.

وكان من الطبيعي بعد هذا كله، أن نستخلص مواقف الكاتب من قضايا مختلفة هامة في كل أبعادها:

الجحيم:

احتل الجحيم حيزا واسعا في المسرحية، وظلت أمرا يثير فضول فاوست وشكوكه واهتمامه عبر مراحل مختلفة من تطور الأحداث، وهذا دليل قاطع على أن الكاتب أراد أن يمرّر فكرة يقنع بها أبناء جيله الذي يحمل الانشغالات والهموم نفسها، ويتطلع إلى الآمال والأحلام نفسها. يتلخص جوهر الفكرة في وجوب التخلي عن الاعتقاد بأن الجحيم هو ذلك العالم الآخر الذي ننتقل إليه، بل يجب الإيمان بأنه عالم قائم في أعماق أنفسنا، ولا يمكن تصوره مستقلا عنا.[2]

ونحن نتفهَّم موقف مارلو من منطلق أن الإنسان يعيش حياة يطغى عليها العذاب والخوف والقسوة... أي يعيش جحيما؛ ومَا إصرار فاوست أمام الشيطان بأنه لا يوجد جحيم، وما ذلك إلا خرافات عجائز، وأنه ليس بعد الموت شيء عدا العدم... إلا تعبير قوي عمّا يختلج في نفسه من شعور بالقلق والخوف، وتأكيد لواقع الجحيم! لقد اختار الشيطان وهو يعي بأن "جحيم الشيطان في حرمانه من حب الله، وفي بقائه سجين نفسه... ويظل الشيطان يشكو ما هو فيه من بعد عن الله، وينحصر كل عذابه في حبّه لمن يبغضه، وفي أن الله، وهو النور والحب، يفيض على كل المخلوقات خيرا ورحمة ونورا. ويبقى وحده محروما من ذلك النور".[3]

العلاقة بين الله والإنسان:

تُعَبِّرُ صرخة البطل: "فهلم يا فوستوس، حاول أن تكسب بعقلك الألوهية"[4]، عن كل شيء، فهي من جهة توضح بأن ثقة فاوست في نفسه تجاوزت الخطوط الحمراء، إلى درجة أصبح يرى فيها من الممكن حيازته على سلطان الربوبية، ومن جهة أخرى تبين بأن جيل البطل (الكاتب) شَرَعَ في التأسيس لعلاقات جديدة مصدرها قناعات دينية خطيرة، وتصورات فكرية متحررة، إنه "الشك" الذي بدأ يتمكن من قلب هذا الجيل الذي يمثله فاوست، فمنه اتّخذ الشيطان مدخلا يؤثر من خلاله على فكر فاوست وإيمانه المسيحي الذي سرعان ما تهاوى، فهو حين شك في الله وفي التوكل عليه يكون قد ارتكب أكبر خطإٍ".[5]

والنتيجة الحتمية لمثل هذه القناعات هو ابتعاد الفرد عن ربه والسقوط في الجحيم، وعليه فمارلو يحذر من مثل هذه التصورات والأفكار والقناعات...

التوبة:

كما عانى فاوست الكثير مع اقتراب نهاية مدة العقد المبرم مع الشيطان، وعبثا حاول أن يتوب؛ فهو بقدر ما كان مقتنعا برحمة الله وغفرانه، كان متمسكا بكبريائه وأحلامه وأوهامه. فملاك الخير قد حرَّك عواطفه وأثار أحاسيسه حين دعاه إلى التوبة: "عد إلى التوبة ولن تستطيع أبدا أن تسلخ جلدك"، ويتفاعل هو مع هذه الدعوة بالهروب إلى المسيح: "أيها المسيح أنقذني، أنقذني...على إنقاذ روح فوستوس التعيس ساعدني"[6]. لقد ظلت نفس فاوست تتنازعها رغبتان متضادتان: واحدة تدعو إلى العودة إلى ربّه والفوز بالتوبة والغفران، وأخرى تلح على احترام العقد الذي يُلزمه بألا يفكر إطلاقا في الله. وكم حاول في ساعته الأخيرة التوبة، وتمنى لو أن الزمن يقف، ومنتصف الليل لا يأتي، حتى ينقذ نفسه، ويعود إلى ربه، لكنه كان يشعر بأن قوى تسحبه إلى الأسفل، وتمنعه من مناداة المسيح، فأدرك ساعتها بأنه هالك لا محالة، وأن مستقره الجحيم التي طالما سأل عنها. لم يقاوم فوستوس كثيرا للفوز بالغفران، فقد كان صوت ملاك الشر لديه أقوى من صوت ملاك الخير، وكل ما استطاعه لم يتجاوز حد الشعور بالأسى والندم. يقترب مارلوفي هذا الموقف من المأساة اليونانية، بل نقول إنه فهمها جيدا ، وعليه قيل في حقه: "يمتاز بمذهبه في المأساة، فهو فيها يعتنق مذهب اليونان القدماء، وقد دخلته روح النهضة، ففي مأساته بطل عظيم عملاق يعلو برأسه فوق سائر الشخوص، ويزدري سلطان الآلهة ثم يسقط سقطة قاضية لا حياة له بعدها".[7] وتبدو مهارة الكاتب واضحة في استغلال مآسي اليونان وتوظيفها بطريقة غير مباشرة لتبصير المجتمع ومحاولة الابتعاد

به عمّا يسئ إليه، ففاوست هو صورة حية لأبطال المآسي اليونانية، بقدراتهم العجيبة، ونهايتهم المفجعة، وهزيمتهم القاتلة، فلا الندم استطاع أن ينجيهم، ولا الأسى استطاع أن يخفف ألمهم، بل هم دفعوا ثمن غرورهم وتهورهم، ولعل نهاية "أوديب" في مسرحية سوفوكليس "أوديب ملكا" تجسد بوضوح هذه الصورة: "آه ما أشقاني! أين أذهب؟ إلى أي بلد؟. إلى أين يحمل الهواء صوتي...واحسرتاه! نعم واحسرتاه! بأي سنان يطعنني الألم والذكرى، اقتلوني، ألقوني في البحر حيث لا ترونني آخر الدهر. أدنوا لا تستكبروا أن تمسوا رجلا تعسا، صدقوني لا تخافوا شيئا، إن شقائي لأعظم وأثقل من أن يحتمله بين الناس أحد غيري"[8]. فالخلاص لا يتحقق في لحظة يستعيد فيها المرء وعيه ويعي غلطته ويندب فيها مصيره، كما لايتحقق الخلاص بوصفه غاية تستقر النفس عندها، بل يتحقق خلال الحياة نفسها، فأنت تنال الخلاص في كونك عشت كما ينبغي ولست تناله بعد أن تكف عن أن تحي كما ينبغي بل خلال العملية في مُجْملها.[9]

قضى فاوست حياته في صراع عنيف بين طموحاته الكبيرة وبين عقبات الحياة الكثيرة؛ ومن الخطإ أن نحكم عليه بالإلحاد، فهو لم يكن في أية مرحلة من مراحل حياته ملحدا، فلطالما استماله صوت ملاك الخير، وحرّك فيه إنسانيته وإيمانه، ولكنها الرغبة الكبيرة في القوة هي التي جنت عليه، وباختصار فهو: "إنسان يحمل في نفسه شوقا عارما لتحقيق ذاته والوصول إلى أقصى قدر من المستطاع من القوة، وإنه يستشعر في نفسه حيوية تغلها الأفكار والنظريات المتوارثة، فيحاول الانطلاق. فهو إنسان يجمع بين ثورة الوجدان وثورة العقل في الوقت نفسه".[10]

من هذا المضمون يتضح أن المؤلف انتصر لبطله من خلال مصيره المأساوي ليتخذ منه درسا أخلاقيا يحذر به الآخرين تجاوز الحدود البشرية والاستهتار بأحكام ومبادئ المسيحية. وبالتالي فمسرحية مارلو بقدر ما هي "تمجيد تعاليم الديانة المسيحية، خاصة فيما يتعلق بتوقيع أقصى العقوبة على من تزين له نفسه تجاوز حدوده البشرية بواسطة ممارسة السحر"،[11] هي تحذير من الاستهتار بالمسيحية لأن مرحلة الاستهتار بدأت فعلا.

لم يكتف مارلو بالحديث عن هذه القضايا (الجحيم وعلاقة الإنسان بالله والتوبة)، بل وقف عند قضايا أخرى هامّة شغلته مثل باقي مثقفي عصره، فلا أحد ينكر بأن عصر النهضة مثّل منعرجا حاسما وحيويا في تاريخ تطور المجتمعات، كان بداية فعلية لتطور شامل وسريع، ولعل أهم شيء أدركه إنسان عصر النهضة هو قيمة العلم، إنه أساس النجاح ومطية كل غاية، ففوستوس درس وتعمّق في مختلف العلوم، فبالعلم تمكّن من الغوص في عوالم عجيبة كعالم السماوات والكواكب، ولولا علم التاريخ ومثله الأدب ما وقف عند حروب الإسكندر وأشعار هوميروس...

لم يهمل مارلو الحديث عن السلطة والسياسة، فهو لم يعرّج ببطله على بلاط الإمبراطور عبثا، بل ليرسل إشارات ذات دلالة من خلال مغامرات بطله هناك؛ فلا شك أنّ "أمير" ماكيافيللي(*) وما أثاره من ردود أفعال متناقضة، كان ظلا وفيا لمارلو وهو يكتب مسرحيته، كما حظيت المرأة باهتمام مارلو، فجاء حديثه عنها مَلِكَة وفاتنة وزوجة وعاهرة...إن ما يثير الدهشة حقا عند مارلو هو عبقريته المتميزة التي مكّنته من الربط بين كل هذه الموضوعات بحبل واحد فقط، أراده أن يكون متينا، من تمسَّك به ظفر ومن فرّط فيه خسر، إنَّه "العمل"، وحده قادر على تحقيق المعجزات وتجاوز كل العقبات، فالعمل هو ما ميّز مسرحية مارلو، فقد قضى فوستوس حياته ساعيا وراء العلم والمعرفة والقوة والاستكشاف، وبالتالي لم يهدأ يوما، ومثله إبليس الذي لا يعرف النوم ولا الملل، حاضر، وجاهز في كل لحظة، فبعمله حاول فوست أن يجمع بين ضدين: الخلود الروحاني واللذة الجسدية رغم علمه بأن الإنسان الذي ينال لذة الجسد يفقد الخلود، ولعل سبب سقوطه يرجع إلى فقدانه لعاطفة الحب، فحتى الجحيم التي طالما بحث وسأل عنها "بحاجة إلى الحب أكثر مما هي الجنة، لأنه يحول الجحيم هناء".[12]

إن هذه الرحلة الطويلة مع بطل مارلو لها ما يبرّرها، خاصة عندما نرحل لاحقا مع بطل "جيته"، لنعرف بِعُمْقٍ الدرجة التي تأثر بها الكتاب العرب في أعمالهم مع هذه الأسطورة، فالموضوعية تُحتّم علينا العمل بمثل هذه الشهادة: "لا بد من تأكيد أن الذين كتبوا عن

فاوست في العربية لم يكونوا متأثرين بفاوست جوته وحده كما هو شائع في دراساتنا، بل متأثرين أيضا بفاوست مارلو بالدرجة نفسها( )."

المراجع والإحالات:

1)- د. عز الدين إسماعيل: قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر، دراسة مقارنة، دار الفكر العربي د.ط، 1980، ص 156.

2)- المرجع نفسه، ص 159.

3)- د. مُحَمَّد غنيمي هلال، الرومانتيكية، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1973، ص 163.

4)- كريستوفر مارلو، دكتور فاوستوس، ترجمة وتقديم: الدكتور مُحَمَّد شاكر عبد المنعم،كلية آداب بنها، جامعة الزقازيق،ط2001،1، ص11.

5)- د. مُحَمَّد أبو الفضل بدران: "فاوست" النص المهيمن في الأدب العربي، فاوست الجديد، لعلي باكثير أنموذجا، مجلة كلية الآداب، المجلد 62، العدد 3، (الآداب وعلوم اللغة)، وحدة النشر العلمي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2002، ص 88 – 89.

6)- كريستوفر مارلو: الدكتور فوستوس، ص 63-64.

7)- أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الأدب في العالم، الجزء الثاني، القسم الأول، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الثانية، 2002، ص179.

8)- طه حسين: من الأدب التمثيلي اليوناني: سوفوكليس، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1981، ص 245 -246- 249.

9)- د.عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، دار غريب للطباعة، القاهرة، الطبعة الرابعة، د.ت، ص 160.

10)- المرجع نفسه، ص 161.

11)- نضال موسى الموسى: دراسة صورة فاوست في مسرحية حامد إبراهيم، فاوست الجديد ومسرحية مُحَمَّد سالم: عقد مع الشيطان في ضوء الأدب المقارن، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد 63، 1998، ص 184.

*)- ماكيافيللي (1469م-1527م)، كاتب وفيلسوف وسياسي إيطالي، اشتهر بكتابه "الأمير".

12)- ريتا عوض: أدبنا بين الرؤيا والتعبير (دراسة نقدية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1979، ص12–27.